بدلة الأسير

للأستاذ نجيب محفوظ

كان « جحشة » بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار ؛ وكان يعد المحطة بحق سوقه الناقة ، فيمضى على الإفرنز فى نشاط منقطع النظير يتصيد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين . ولعل « جحشة » لو سئل عن مهنته للعنها شر لعنة . لأنه كغالبية الناس برم بحياته ، ساخط على حظه . ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأعيان ، فيرتدى لباس الأفندية ، ويأكل من طعام البك ، ويرافقه إلى الأماكن المختارة فى الصيف والشتاء ، مؤثراً من أعمال الكفاح فى سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة . على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى الغر — سائق أحد الأعيان — يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور فى الطريق ويغازلها بجسارة وثقة . بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه حبوراً : « ساتى قريباً ومعى الخاتم » . ورأى الفتاة تبسم فى دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها ، والحقيقة أنها أرادت أن تبدى عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت ... رأى ذلك فالتهب قلبه وأحس الغيرة تنهشه نهشاً موجعاً . وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض . وكان يقيمها عن كثب ويقطع عليها السبيل فى الذهاب والإياب ، حتى إذا خلا بها فى عطفة أعاد على أذنيها ما قاله لها الغر : « ساتى قريباً ومعى الخاتم » ، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت له باحتقار : « هات لك قبقاب أحسن » . فنظر إلى قدميه النليظتين كأنهما بطنا بخق جمل ، وجلبابه القذر ، وطاقيته المغبرة وقال : « هذا سبب شقائى وأفول نجمى » . ونفس على « الغر » عمله وتمناه ... على أن آماله لم تقطعه عن مهنته ، فثابر على كده قانعاً من آماله بالأحلام . وقصد فى ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينتظر القطار القادم .

ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادماً من بعد كأنه سحابة دخان ، وما زال يدنو ويقترب وتتميز أجزاءه ويتصاعد ضجيجه حتى وقف على إفريز المحطة ، وهرع « جحشة » إلى العربات المتراصة ، فرأى — لدهشته — على الأبواب حراساً مسلحين ، ووجوهاً غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة . وتساءل الخلق : قيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذين تساقطوا بين أيدى عدوهم بغير حساب . وإنهم يساقون الآن إلى المعتقلات

فوقف « جحشة » متحيراً يقلب عينيه فى الوجوه المغبرة ؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة فى البؤس والفقر لن يكون فى وسعها إشباع نهمها من سجائره ... ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار وهم أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى . ولكنه سمع صوتاً يصيح به بالعربية بلهجة أفرنجية قائلاً « سجائر » فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه : أى نقود . ففهم الجندى وأومأ له برأسه فاقترب محاذراً ووقف على بعد لا تبلغه يد الجندى . فخلع الجندى جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوح بها : « هذه نقودى » فتعجب جحشة وتفرس فى الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع . ووجب قلبه ، ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً ، فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالى ، وأبرز فى هدوء ظاهرى علبة سجائر ، ومد يده ليأخذ الجاكتة . فقطب الجندى جبينه وصاح به « علبة واحدة بجاكتة ؟ ... هات عشرا » فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء ، وقد غاض طمعه ، وأوشك أن يأخذ فى غير السبيل . فصاح به الجندى « أعطنى عدداً مناسباً ... تسعا ... أو ثمانيا » فهز الشاب رأسه بعناد . فقال الجندى : « إذاً سبعا ... » ولكنه هز رأسه كما فعل فى الأولى ، وتظاهر بأنه يعتزم المسير فقنع الجندي بست ثم هبط إلى خمس . فلوح جحشة بيده متظاهراً باليأس ، وتراجع إلى المقعد وجلس ، فصاح به الجندى المجنون : « تعال ... رضيت بأربع ... » فلم يلق إليه بالاً ؛ وليدله على عدم اكتراثه أشعل سيجارة ومضى يدخن فى تلذذ وهدوء . فثارت ثائرة الجندي وأهاجه الغضب ، وبدا وكأن ليس له غاية فى الوجود سوى الاستيلاء على سجائر ، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين . ولبث جحشة جالساً يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه ولما نزل الجندى إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجندى ، فقال له وهو يمد يده بالجاكتة : « هات » فلم يبد من التهوض